(٣)

أسس بلاغية (١)

تطبيقها على البيان القرآني محظور..

مثل من المبالغة والسجع..

كان الأدب العربى ـ جاهليه وإسلاميه ـ مصدراً غنيا أمد العلماء والباحثين في بدء تدوين العلوم، وبخاصة العلوم اللسانية كالنحو والصرف والعروض والبلاغة ـ أمدهم بالنموذج والمثال والشاهد على تأصيل القواعد ووضع الضوابط المختلفة.

وكان الشعر أكبر معوان لهم من النثر في هذا المجال لذيوعه وغزارته.

كانوا يتجهون أولا إلى استنباط القواعد والأسس من التراث المنظوم والمنثور، حتى تستقيم لديهم الفكرة وتتضح سمات المنهج مع سوق الكثير من النصوص المأثورة للاستشهاد على صحة القاعدة واطرادها إلا في ما ندر.

وعلماء البلاغة كانوا أكثر حرية في استمداد الشاهد المأثور من غيرهم كالنحاة.. وطبيعة المنهج قد ساعدتهم على استثمار تلك الحرية إلى أبعد مدى معهود. لأن الشاهد النحوى أو الصرفى مشروط فيه وروده عن العرب الخلص الذين لم يلن لسانهم، ولم تفسده رخاوة المدنية ولم تجرب عليه لحن. أما الشاهد البلاغي فغير خاضع لهذا القيد. ويستوى فيه كلام المولدين وكلام «الأصلاء» كما يستوى فيه معهما كلام المحدثين في كل مكان، وأى زمان(٢).

فالغاية من الشاهد البلاغي أن يكون معبرا عن فن أو صورة بلاغية من تشبيه أو تمثيل أو مجاز أو كناية أو فصل ووصل، أو حذف وذكر، أو تقديم وتأخير، أو مشاكلة أو مبالغة وطباق، بصرف النظر عن القائل من القدماء أو من المحدثين، من شبه الجزيرة أو من غيرها من بقاع الأرض الواسعة. ولهذا صلح أن يكون شعر شوقى، ومعروف الرصافى، وحافظ إبراهيم أن يكون ندا لشعر زهير بن

---

(١) نشر هذا البحث في مجلة كلية اللغة العربية بمكة المكرمة ـ العدد الأول ١٤٠٣هـ.

(٢) نقصد بالكلام هنا ما تصح نسبته الى العمل الأدبى لا مطلق كلام.

obeikandl.com

أبى سلمى والنابغة، وحسان بن ثابت فى أن البلاغيين لايفرقون بين أشعار هؤلاء ولا أولئك عند مجرد التمثيل والاستشهاد.

الخطوة الثانية

وتلى هذه الخطوة خطوة ثانية، يتجه فيها الباحثون إلى نصوص القرآن الحكيم، والسنة الطاهرة فيسوقون منها شواهد وأمثلة على القاعدة التى استقرت لديهم ثم استوت على سوقها تعجب الزراع أولا تعجبهم؟!

وكان لهذا السلوك ـ وضع القاعدة أولا، ثم الاستشهاد عليها من القرآن الحكيم ـ مزالق خطرة وقع فيها علماء البلاغة بالذات. فحملوا كلام الله ما لم يحمل، وخرجوه على وجوه هو أبعد ما يكون عنها. فالقاعدة عندهم مقدسة لاتمس، أما النص القرآنى فقد أخضعوه لتلك المقاييس والأسس وهان عليهم أن يسيئوا إلى النص القرآنى؟! ولم يهن عليهم أن يمسوا قواعدهم بالتعديل أو يتهموها بالقصور عن أن ترقى إلى مستوى النص الحكيم، وتضفى عليه ما هو له أهل من الاجلال والسمو.؟!

ولئلا يظن القارىء الكريم أننا نسوق الكلام على عواهنه وندعى دعاوى ظالمة.

فإننا نضع بين يديه نماذج من المبالغة، والسجع، وهما فنان بلاغيان معروفان، حينما استشهد علماء البلاغة على بعض صورهما من القرآن الحكيم وقعوا فى أخطاء أسفر عنها التطبيق، لايجاريهم فيها من يعرف للقرآن قدره ومنزلته.

١ ـ المبالغة:

أما المبالغة فقد انتهى بهم النظر فى الأدب العربى إلى وضع تعريف لها. ثم تبين أقسامها. وبعد أن ساقوا ما شاءوا عليها من شواهد بشرية المصدر، راحوا يستشهدون عليها أو على أبعد أنواعها من القرآن الحكيم، فكانت الكارثة كما سيأتى.

تعريف المبالغة:

عرفها الخطيب في الإيضاح، وتبعه شراح التلخيص وغيرهم، فقال: «المبالغة أن يدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعداً(١)».

ونظرة سريعة في هذا التعريف تريك أن ما أطلق عليه الباحثون وصف المبالغة إنما هو فن قائم على «الادعاء» وليس لمضمونه حظ من الواقع.

فإن كان المراد منها «الشدة» فإن المتكلم بها يضيف إلى الشدة الواقعة فعلا شدة أخرى لا وجود لها؟

وإن كان المراد به «الضعف» فإن المتكلم بها يضيف إلى ذلك الضعف ضعفا لا وجود له. فمدار الأمر فيها قائم على مجرد الادعاء. وهذا وحده كاف بتنحية المبالغة عن البيان القرآني، لأنه تصوير أمين للواقع لا زيادة فيه ولانقص.

أقسام المبالغة:

وبعد تعريفها قسموها ثلاثة أقسام:

١ ـ التبليغ: وضابطه أن يكون الوصف المدعى فيه جائز الوقوع عقلا وعادة. يعني أن تحققه غير ممتنع ومن أمثلة هذا النوع عندهم قول امرىء القيس:

فعادى عداء بين ثورة ونعجة ... دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

يريد امرؤ القيس أن يصف فرسه بالمهارة في خفة الحركة فقال إنه استطاع أن يدرك ثورا «بقرة» وحشية «نعجة» في جولة واحدة دون أن يصيبه إعياء أو تظهر عليه علامة من علامات الاجهاد لدرجة أنه لم «يعرق» وهو معنى قوله: فلم ينضح بماء فيغسل:

وهذا الوصف المدعى ليس من موانع العقل فضلا عن العادة فهذا ـ وما أشبهه إما تبلغ والتبليغ كالبلاغ هو «التوصيل» بلا زيادة ولانقص.

كما مثلوا له بقول ابن الرومي يهجو بخيلا يدعى ابن يوسف فيقول:

---

(١) متن الايضاح (٢٠٧) وشروح التلخيص (جـ ٤ ص ٣٥٨).

لو أن بيتك يا ابن يوسف ممتل إبرا يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف[1] يستعيرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل[2]

يبالغ ابن الرومى فى وصف مهجوه بالبخل، فلو كان يمتلك ابرا يضيق بها بيته، وجاء أبوه - يوسف - يستعير إبرة واحدة ما أعطى أباه الأبرة. ومن كان هذا شأنه فهو غارق فى البخل. وهو هنا يورى بقميص يوسف (المقدود).

وهذا المعنى الذى يدعيه ابن الرومى ليس من موانع العقل ولا العادة فطبائع الناس زاخرة بكل عجيب..

ومن الشواهد المأثورة قول حسان بن ثابت يصف قوما بالكرم على نقيض ما يدعيه ابن الرومى فيقول حسان[3]:

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

ما يقوله حسان - هنا - جائز الوقوع، فإن الكلاب قد تترك «الهرير» إذا كثر الطارقون، وكثير من الناس يصنعون المعروف دون أن يسألوا عمن يصنعونه معه. فهذا تبليغ كذلك حسب مصطلح القوم.

٢ - الأغراق: هذا النوع مفرع على ما قبله وهو التبليغ. الذى لا يمتنع فيه الوصف لا عقلا ولا عادة. وهذا ظاهر من النصوص التى ساقوها.

أما الإغراق فقالوا إن الوصف المدعى فيه يكون جائزا عقلا وممتنعا عادة[4].

وقد أجمعوا على التمثيل له - ابتداء - بقول الشاعر:

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث كانا

لأن إكرام الجار حال مجاورته أمر مركوز فى طباع الأوفياء أما اتباعه الكرامة - حيث يكون - بعد انتقاله فهو وإن لن يمنعه العقل فإنه لم تجربه عادة. ولهذا عدوه «إغراقا» ومعناه أن المتكلم تجاوز الحد إلى ما هو ليس بمعهود وإن كان

---

(١) يوسف هو أبو المهجو.
(٢) الصبغ البذيعى د. أحمد موسى (٤٨٤).
(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (ص ٢٠) شرح الشيخ عبد المتعال الصعيدى.
(٤) شروح التلخيص (جـ٤ ص ٣٦٠).

obeikandi.com

التجاوز فيه خفيفا. لأن حكم العادة غير مطرد مثل حكم العقل، وعادات الناس تختلف فما هو ممنوع فى عادة قوم واقع مألوف فى عادة قوم آخرين.

ومن شواهده أيضاً قول جرير:

إذا غضبت عليك بنو قشير — رأيت الناس كلهم غضابا..؟!

وقول الفرزدق أو الأخطل يهجو جريرا وقومه:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم — قالوا لأمهم بولى على النار[1]؟

فى البيت الأول الشاعر يمدح فيربط مشاعر كل الناس بمزاج بنى قشير؟

وفى الثانى يذم فيصف قوما بالبخل فإذا سمعوا كلبهم يعوى وشعروا بقدوم ضيف سارعوا باطفاء نارهم حتى لايبصرهم الضيف...؟!

ولما كان هذان الوصفان ليسا من موانع العقل ولم تجر بهما عادة أطلقوا عليهما وصف «الإغراق» بناء على ما قد استقر لديهم من ضوابط.

وكل من التبليغ والاغراق مقبولان عند البلاغيين وبعض النقاد، لأن مجاوزة الحد فى التبليغ لا وجود لها. وفى الاغراق يسيرة.

ومع هذا فإننا لم نعثر على مثال واحد ساقوه من القرآن الحكيم شاهدا على واحد منهما وهما موضع رضا عندهم كما تقدم.

٣ ـ الغلو: وضابطه أن يكون الوصف المدعى فيه غير ممكن لا عقلا ولا عادة..؟

ومن أشهر شواهدهم على الغلو قول أبى نواس يمدح هارون الرشيد:

وأخفت أهل الشرك حتى أنه — لتخافك النطف التى لم تخلق

أبو نواس يدعى أن النطف التى لم تخلق ـ أجيال قادمة ـ خافت من الرشيد.!؟

---

(١) نقائض جرير والأخطل (١٣٥) د. أحمد الشايب. وقد تردد المؤلف فى نسبة البيت إلى كل من الشاعرين.

وهذا المعنى - كما ترى - أوغل ما يكون فى الكذب أو ما هو أبعد من الكذب، لأن فيه دعوى ما هو مستحيل، ولاتقبل فيه الشفاعة من شفيع.

فى كلام أبى نواس جانب لاينكر، وهو خوف الأحياء من المشركين من هارون الرشيد. وجانب منكر بكل مقياس وهو خوف ذرية المشركين الذين لم يخلقوا - بعد - منه. فمن لم يخلق إنما هو عدم، والخوف أمر وجودى فكيف يوصف المعدوم بما هو وجودى؟! إنه افتراء فاحش!

ومن شواهد الغلو قول بشار بن برد:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وهذا لايقل بشاعة وافتراء عن قول أبى نواس السابق فليس للشمس حجاب يهتكه المضربون - ومعهم - بشار؟! وليس لهادم يسيلونه؟! وحتى لو كان لها حجاب ودم فليس فى وسع بشار، ولا بلايين مثله أن ينالوا منها شيئا سواء شاهرهم عليها المضربون أو لم يظاهروهم؟!

ومن «الغلو» ما يكون المرجع فيه إلى الاعتبارات الشرعية فالأفتيات على الشرع كالأفتيات على العقل فى كل منهما خروج إلى الاستحالة.

ومن ذلك قول بعض الأندلسيين يمدح:

ما شئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار؟!
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار؟!

ومخالفة الشرع فيما جاء به من أصول وعقائد أخطر من مخالفة قوانين العقل.

والشاعر - هنا - أدعى أن إرادة ممدوحه فوق الأقدار... وهذا شطط بالغ!! وأدعى لممدوحه صفة لايوصف بها إلا الخالق - الواحدانية والقهر - وهذا كذب فاحش.

ثم عاد فشبه الممدوح - بالنبى - وشبه شيعته بالأنصار وفضلا عن أن فى هذا إخلالاً بأصول المدح من حيث أنه اداعى لممدوحه وصفا أنزل مما ادعاه له فى البيت الأول.

والمدح يحسن فيه «الترقى» لا «التدنى» فضلا عن هذا القصور فالفرق كبير بين المشبه ـ الممدوح ـ والمشبه به ـ النبى عليه السلام ـ فجاء كلامه قلقا نافراً مردودا.

وشبيه بهذا قول الآخر يمدح:

لو كان علمك بالآله محصلا — فى الناس ما بعث الاله رسولا..؟!
أو كان لفظك منزلا ما انزل — التوراة والقرآن والانجيلا..؟

هذا كلام جامح، ومعناه فاسد.. فليس علم ممدوحه بمغنى الناس عن الرسل لو حصلوه فى صدورهم، ولا الفاظه مغنية عن انزال كتب السماء!

ولكنه الملق الرخيص والغواية الفارغة!!

فهذان النموذجان جديران بسلكهما فى المبالغة المسماة غلوا بل هما أولى بها من غيرهما، والحاكم فى ذلك هو الاعتبار الشرعى فى المقام الأول.

ولهذا فإننى اقترح أن يضاف إلى ضابط «الغلو» كل كلام خالف فيه قائله أصول الشرع وقواعده، فليس مخالفة العقل بأولى من مخالفة الشرع فى هذا المجال(١).

وقد ألمح بعض النقاد إلى هذا المعنى فى العصر الحديث. ولهذا قصة طريفة جديرة بالذكر وإن كنت لا أذكر الآن مصدر اطلاعى عليها فقد شاد بعض المحدثين قصرا فأحسنه وأجمله، ودعا الشعراء فى حفل الافتتاح. فقام شاعر وقال فيما قال:

شاد ابن داود العجائب فوقها — فتهدمت.. وبنيت مالا يهدم

ابن داود المراد به سليمان النبى عليه السلام. أى أنه بنى فوق الأرض ما كان مصيره التهدم. أما ممدوح الشاعر فقد بنى مالايتهدم أبد الدهر؟!

لم يرق هذا المعنى ـ تفضيل الممدوح على سليمان عليه السلام ـ فانبرى أحد الشعراء النقاد للرد عليه واقترح أن يكون البيت هكذا:

---

(١) تخلو كتب الاقدمين من هذا الاعتبار. لذا أثبتنا هذا الأقتراح.

شاد الشياطين العجائب فوقها فتهدمت، وبنيت مالا يهدم

ثم قال: فإن أبى الشاعر أن يسوى بين ممدوحه والشياطين أبينا نحن - المؤمنين - أن نسوى بين نبى وبين ممدوحه فضلا عن أن تقدمه عليه.!

وهذه لمحة طيبة إلى هذا النوع من «المبالغات» التى يجنح بها أصحابها عن الأعراف الشرعية فرفضها أولى من رفض ما يأباه العقل.

والسبب أن ما يأباه الشرع لايجوز الاستثناء فيه بحال.!

أما ما يأباه العقل فالاستثناء جائز بل هو واقع فعلا، وهذا موضع اتفاق بينهم.

صور الاستثناءات

الغلو أفحش ضروب المبالغة عندهم، وحكمها الرفض بخلاف التبليغ والاغراق فهما مقبولان كما تقدم.

ومع هذا فإننا نراهم استثنوا صورا مما يأباه العقل وجعلوها من المقبول ومن ذلك:

١ - أن يقترن بما يقر به من الصحة والامكان، كأن يشتمل على لفظ «كاد» أو لفظ «لو»:

فمن الأول قول الشاعر(١) يصف فرسه بالسرعة وخفة الحركة:

ويكاد يخرج سرعة من ظله لو كان يرغب فى فراق رفيق؟

خروج الفرس عن ظله وسبقه عليه مستحيل عقلا، فكان حق هذه أن ترفض، لأنها فاسدة؟

ولكن اقترانها بكاد قربها من الصحة والإمكان فعدت مقبولة(٢) هكذا قالوا.

ومن الثانى قول أبى الطيب المتنبى يصف الغبار تطيره حوافر الخيل فى المعارك:

---

(١) ابن حميد الصقلى.

(٢) شروح التلخص جـ ٤ ص ٣٦٢.

obeikandl.com

عقدت سنابكها عليها عثيرا[1] لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا؟!

العثير: الغبار بكسر العين وسكون الثاء وفتح الياء. والعنق: السير السريع.

يدعى أبو الطيب أن الغبار المثار من حوافر الخيل صنع «جسراً» فوقها أى طريقا. حتى لو أرادت الخيل أن تسير عليه سيرا سريعا لأمكنها ذلك..؟!

وهذا بدوره محظور عقلا فكان حقه الرفض، ولكن اقترانه بكلمة «لو» قربها من الامكان والصحة فعدت مقبولة.

ومنه قول ابن ميادة يمدح قيسا فيقول:

ولو أن قيسا قيس عيلان أقسمت

على الشمس لم يطلع عليك حجابها[2]؟

فالشمس لا سلطان لغير الله عليها. وما قاله ابن ميادة حكمه الرفض لولا أنه قرنه بلو فخففت لو هذه من غلوه فقبل؟!

٢ ـ وتقبل المبالغة إذا تضمنت نوعا حسنا من التخييل.

قالوا: ومن هذا النوع قول الأرجاني يصف طول الليل:

وخيل لى أن سمر الشهب فى الدجى وشدت بأهدابى إليهن أجفائى؟

وفى هذا البيت كنايتان، فى أولاهما كنى عن طول الليل بالشطرة الأولى: وثانيتهما حيث كنى عن سهره بالشطرة الثانية. ومؤدى الكنايتين محال. فالشهب لم تسمر.

وأجفانه لم تشد إليها..! فكان الأصل أن يرفض هذا القول لما فيه من إفراط وشطط ولكن شفيعه عندهم أن بيته هذا تضمن نوعا حسنا من التخييل فقبل..!

٣ ـ ومما يجعل المبالغة المغالى فيها مقبولة ـ عندهم ـ أن تساق مساق الهزل، والخلاعة[3]؟!

---

(١) النقائض فى الشعر العربى للاستاذ أحمد الشائب.

(٢) شروح التلخيص جـ ٤ ص ٣٦٣.

(٣) شروح التلخيص جـ ٤ ص ٣٦٥.

obeikandl.com

وذكروا لذلك مثالا قول الشاعر:

اسكر بالأمس إن عزمت على الشرب غـــــدا يالـذا من العـــــجب؟!

ان الذكريات تهيج فى النفس المشاعر المناسبة لها وهذا الشاعر لو قال أنه يسكر إذا تذكر شربه للخمر لكان لقوله شفيع من علم النفس الحديث، فالمؤثر الشرطى يتحقق مفعوله بمجرد الاحساس فتعود التجربة ولو لم يكن يتوافر لها السبب المادى. فمعتاد شرب الخمور قد يغيب عقله إذا استغرق فى تذكر تجاربه معها. والجائع قد يسيل لعابه إذا تذكر أكلة شهية كان قد طعمها.

أما شاعرنا ـ هنا ـ فقد جنح به خياله إلى تصوير غريب بعيد منكر فهو إذا عزم على الشرب «غدا» سكر بالأمس؟! وأمس الدابر ـ كما يقول النجاة ـ لايعود فكيف يسكر العازم على مشرب غدا فى زمان انقضى وفات..!

مدعى محال جدا كما ترى، لا يسلم به عقل ولا واقع، ومع هذا فقد قبله النقاد أو بعضهم، وقبله البلاغيون؟! والسبب أن هذا الكلام سيق مساق الهزل والخلاعة؟!

ولو أنهم قالوا سيق مساق التفكة والتظرف والاستطراف لكان أنسب، ولكنهم أصروا على «الخلاعة» ولست أدرى ما الذى أغراهم بهذا اللفظ المريب.

فإذا سلموا لنا بحمله على التفكه والتظرف صح لنا ولهم أن ندخل فيها كثيراً من الآثار. منها قول أبى نواس يصف قدراً صغيرة(١):

هى القدر قدر الشيخ بكر بن وائل ربيع اليـــتـــامى كل عـــام هزال
وتغلى بذكـر النار من غيـر حـرها وتنزلهـــا عـــفـــوا بغيـــر جـــعـــال
يغص بحـــيـــزوم الجرادة صـدرها وينضح مـــا فـــيـــهـــا يعـود خـلال

فهذه الآبيات كناية عن «صغر» القدر وعدم جدواها، ولكن الشاعر ادعى لها أوصافا لايمكن وقوعها. ولما كان قصده التلمح والتظرف قبل قوله.

ومثله المبالغة فى وصف رجل بطىء القراءة:

---

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ٢٨٥.

إذا قــرأ العــاديات في رجب لم ينه آياتهـــا إلى رجب
بل هو لايســـتطيع فى سنة يقــرأ: «تبت يدا أبى لهب»؟!

العاديات، وتبت يدا أبى لهب سورتان من قصار المفصل، يقرأهما القارىء فى وقت قصير يالغ القصر... ووصف بطىء التلاوة بأنه يقرأ الأولى فى حول قمرى كامل، أو ينتهى به الحول دون الفراغ منها دعوى موغلة فى الأفراط.

وكذلك دعوى قراءة الثانية فى أكثر من سنة كاملة. فهما دعويان مرفوضتان أصلا.

ولكن إرادة الشاعر التلمح والتفكه يضيفان عليهما نوعا من القبول لهذا الغرض نفسه. والضرورات تقدر بقدرها كما يقول الأصوليون.

هدفنا من ذكر هذه الصور

هدفنا من ذكر هذه الصور هو أن نثبت أن العلماء قد استثنوا من المبالغة المرفوضة عقلاً نماذج عللوها بعلل تجعلها مقبولة. أما المبالغة المرفوضة شرعا فليس الاستثناء واردا فيها بحال.

والمبالغة عموما لما كانت على خلاف (الأصل) وقف منها النقاد ثلاثة مواقف نوجزها فى الآتى:

١ - فريق منعها منعا قاطعا وذهب إلى أن خير الشعر مادل على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تروض جماح الهوى، وتبعث على التقوى، وتبين موضع الحسن والقبح فى الأفعال وعمدتهم فى ذلك ما ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث رفع من شأن شعر زهير، لأنه كان لايمدح الرجل إلا بما هو فيه، ولهذا قالوا أن خير الشعر أصدقه وذكروا على ذلك دليلا هو قول حسان:

وأن أحســن بيت أنت قــائله بيت يقال إذا انشدته صدقا(١)

٢ - وفريق قبلها مطلقا ووجد فى التعبير بها وسيلة لعمل الخيال والابداع

(١) أسرار البلاغة ص ٢١٨ تحقيق وشرح الشيخ رشيد. رضا.

الفنى. ومن هؤلاء الشاعر البحترى الذى رفع لواء حرية الشاعر، وتحرير الشعر من الالتزام بقواعد العقل وقوانين المنطق ويتضمن هذه قوله المشهور:

كلفتمونا حدود منطقكم ... فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه

وشعار هذا الفريق أن الشعر يكفى فيه التخييل والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل دون أن يلتزم الشاعر بشىء من قواعد العقل والمنطق. وعلى هذا ساغ لهم أن يقولوا: خير الشعر أكذبه. على أن المراد بالكذب هنا مجرد الادعاء والتخييل وليس الكذب الخلقى الذى يخدع به الكاذب غيره.

٣ ـ وفريق توسط ولم يتطرف فلم يرفض مطلقاً، ولم يقبل مطلقاً بل فصل.

فقبل التبليغ والأغراق ـ بشرطهما ـ ورفض العلو إلا ما ثبت استثناؤه منه على النحو الذى مر..

وهذا هو رأى البلاغيين الذى ارتضوه ولم يكد يشذ عنه أحد منهم(٢).

رأينا فى هذا النزاع

إذا كانت المبالغة مقصورة على أدب البشر فنحن من الذين فصلوا فقبلوا مالا إفراط فيه، وردوا ما فيه إفراط وأدب البشر حافل بما ذكروه من أنواع المبالغة الثلاثة.

والخيال فى الشعر كالروح فى الجسد يحيا الشعر به ويموت بدونه، وبخاصة إذا كان الهدف من العمل الفنى الإمتاع لا الإقناع.

الهدف مما تقدم

ظاهر مما تقدم أن العلماء قد استمدوا ضابط المبالغة وأقسامها وضابط كل منها من النصوص المأثورة فى الأدب العربى جاهلية وإسلامية، وان تلك النصوص أمدتهم باللبنات التى أقاموا عليها صرح قواعدهم كلها فى شأن المبالغة لغيرها من الفنون البلاغية.

وبعد أن فرغوا من رسم الهيكل وبنائه والتمثيل عليه ولوا وجوهم شطر القرآن الكريم.

---

(١) شروح التلخيص جـ ٤ ص ٣٥٨.

نقول ـ والأسف يملأ النفوس ـ أنهم حين استشهدوا على المبالغة من القرآن الحكيم لم يستشهدوا منه عليها إلا على النوع المرفوض عندهم ـ الغلو ـ وهم وإن التمسوا وجوها لتبرئة النص القرآنى من الرفض، فإنهم وقعوا فى مآزق خطرة لم يحمدها لهم ذو فكر مستقيم. وإليك بعض المثل:

آية الزيت المضىء فى سورة النور

ان أول ما يفجؤك من تطبيقهم قواعد المبالغة على البيان القرآنى ما وصفوا به قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥].

فالخطيب القزوينى يدرج هذه العبارة فى سلك المبالغة المسماه عندهم غلواً(١).

ثم تابعه شراح التلخيص فى هذا العمل، وهم وإن عدوه من الغلو المقبول لاشتماله على كلمة «يكاد» حسب قواعدهم فإنهم أساءوا إلى النص الحكيم من جهتين:

الأول حيث أطلقوا عليه وصف الغلو وهو ادعاء ما ليس بواقع واقعا.

وهذا تجرؤ غير محمود على كلام الله الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟!

الثانية: حيث فسروا سبب قبوله فقالوا: ان المبالغة فيه قد اقترنت بما يقربها من الصحة (؟!) وهو لفظ يكاد(٢)؟! ومعنى هذا ان هذه العبارة باطلة فى الأصل ولفظ يكاد يقربها نوعا ما من الصحة..؟!

فهل بعد ذلك تجرؤ أشنع من هذا على كتاب الله المصون؟

وقد أدرك بعض الشراح شناعة هذا القول فعلق عليه قائلا:

«كان ينبغى أن يقول: أدخل عليه ما يخرجه عن الأمتناع تأدبا، إذ صحة كلام الله لامزيد عليها(٣).

---

(١) الايضاح جـ ٢ ص ٣٦٦ تعليق لجنة من علماء الأزهر.
(٢) شروح التلخيص جـ ٤ ص ٣٦٢.
(٣) شروح التلخيص جـ ٤ ص ٣٦٢.

وهذا استدراك واجب، ولكنه عمل واحد منهم، وبقى الآخرون مصرين على تخريجهم..؟!

والنص الحكيم فوق مازعموا. فالمراد كما يفهم من السياق ـ وصف الزيت بالصفا والنقاء حتى أنه قارب درجة الاضاءة وإن لم يكن مضيئا حقيقة وإنما فيه نوع من البريق واللمعان.

وليس فى هذا غرابة ولا خروج عن مسلمات العقل حتى تكون الآية من قبيل الغلو وإن عدوه مقبولا. وإضاءة بعض الأجسام من غير مس نار لها حقيقة واقعة فى العصر الحديث. فمؤشرات بعض آلات ضبط الوقت ـ الساعة ـ المصنوعة من « الفوسفور » تضىء ليلا فى حالك الظلام حتى أن صاحبها ليمكنه أن يعرف من النظر إليها حقيقة الوقت الذى هو فيه بالضبط ولو كان فى غرفة مظلمة.

هذه الإضاءة لاينكرها من قد شاهدها فأين النار التى مست تلك المؤشرات حتى أضاءت.؟!

ان الغلو والافراط أن يقال ان فى هذه الآية غلوا أو إفراطا.

بلوغ القلوب الحناجر

وأبو هلال العسكرى يذكر حد الغلو فيقول(1): «الغلو تجاوز حد المعنى والارتفاع به إلى غاية لايكاد يبلغها» ثم يمثل له من القرآن الحكيم فيقول: كقوله تعالى:

﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾[الاحزاب: ١٠].

ثم يسوق آيات أخرى مثل:

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقوله تعالى:

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا

---

(١) الصناعتين ص ٢٨٠.

الذِّكْرَ . . . ﴾[القلم : ٢١] ومن اليسير توجيه هذه النصوص وجهة أخرى تليق بجلال كلام الله الحكيم بل أن ذلك التوجيه لمن أوجب الواجبات، الآية الأولى لا غلو ولا مبالغة فيها وإن توهموا ذلك : ومن يقرأ الآية بتمامها يرى أنها تصور الجو النفسى الرهيب الذى منى به المتحدث عنهم . .

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : ١٠]

إن مقدمة الآية مهدت السبيل وهيأت الأذهان لما وصل إليه حال القوم .

فعدوهم جاءهم من جهتين غير معهودتين فى حروب ذلك العصر . . وهما الفوقية والتحتية . فضلا عن المجىء من الأمام والخلف . . . واليمين والشمال . فهاهم قد طوقهم عدوهم فى حركة سريعة محكمة . .فبلغ الشعور بالأضطراب عندهم كل مبلغ . فزاغت أبصارهم من أثر الأنفعال النفسى العنيف المفاجىء .

هذه الأوضاع أسلمتهم إلى هلع قاتل، زاغت من أجله أبصارهم ووجبت قلوبهم . ووصل أثر وجيبها إلى الحناجر فجفت حلوقهم . وانحبست أصواتهم وانعقدت ألسنتهم من شدة الاضطراب والهلع .

فهل إذا قيل بعد ذلك : وبلغت القلوب الحناجر « يصبح هذا التصور الأمين غلوا وسرفا وإفراطا » ؟ !

والذى أوقع القدماء فى هذه المآزق أنهم فهموا أن المراد من القلوب هو شكلها الحسى المادى . وهذا فهم لا أراه صوابا .

ودليلى أن القرآن الحكيم لم يذكر القلب مرادا منه الشكل الحسى المادى أبدا ولا فى آية واحدة فكل ما فيه من ذكر القلب أو القلوب إنما المراد به الأحوال التى تعتريها وتتوارد عليها من الهدى والضلال . والرقة والقسوة والعلم والجهل .

هذه هى سنة القرآن البيانية فى ذكره للقلب، مثل قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٩]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] فهل فى الوجود واحد من الأحياء ليس له قلب مادى حسى؟! حتى يقال: لمن كان له قلب؟!

ولو كان المراد بالقلب الشكل الحسى فمعنى الآية إذن «إلا من أتى الله بقلب سليم» أى خال من الأمراض العضوية. وهذا باطل بالعقل والنقل.

وإلا فإن من يموت بمرض القلب لاحظ له عند الله ولو كان من أنقى الأنقياء.؟! وهذا ظاهر الفساد.

وإذا تقرر أن القرآن لم يرد قط بذكر القلوب أشكالها ولا أحجامها المادية، وإنما يريد الأوضاع التى تتوارد عليها ظهر سوء الفهم الذى تمسك به القدماء فى آية بلوغ القلوب الحناجر. فهم لم يدرجوها فى سلك الغلو إلا لفهمهم أن المراد منه «قطعة اللحم» المسماة قلبا وهذا مالم يرده القرآن أبدا.

وإذا بطلت العلة بطل المعلول. والفهم الخاطىء باطل وكذلك ما يبنى عليه. فليس فى الآية غلو ولا إفراط لبطلان السبب الذى حملهم على عدها غلوا.

وبقيت إشارة مهمة وهى أن يدرك القارىء أن هذه المبالغة على حسب قواعدهم لم تقترن بما يقربها من الصحة من مثل لفظ «كاد» ولفظ «لو» كما تقدم.

ومعنى هذا - حسب قواعدهم أيضاً - إن هذه العبارة: «وبلغت القلوب الحناجر» فاسدة - استغفر الله - وليس لها شفيع:؟!

فانظر إلى أى مدى تسىء بعض قواعدهم للنص القرآنى الحكيم.

ولو أن البلاغيين القدماء ذهبوا فى هذه الآية مذهب الراغب الذى قال أن المراد من القلوب هنا هو «الأرواح(١)» لأراحوا أنفسهم وأراحونا غفر الله لهم.

ووقع الإمام أبو بكر الباقلانى وهو من أعلام الأشاعرة فى مثل ما وقع فيه السابقون(٢).

---

(١) مفردات الراغب ٤٧٧.

(٢) اعجاز القرآن ٧٦ - ٧٧ تحقيق السيد أحمد صقر.

obeikandl.com

فيذكر الغلو والأفراط فى الصفة. ويقول بعد التمثيل له من الشعر:

« ومن هذا الجنس فى القرآن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠]؟

كما يذكر آيات منها:

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢]

وقوله تعالى:

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك: ٨]

وعد هذه الآيات من الغلو قصور من هذا الإمام الجليل كان حريا به ألا يقع فيه.؟!

فحديث جهنم، وقول الله لها يذهب كثير من المفسرين إلى أنه حقيقة والله قادر على إنطاق النار كما هو قادر على إنطاق الأيدى والجلود والأرجل وما ذلك على الله ببعيد:

وكاتب هذه الدراسة يميل إلى هذا القول فهو حكاية صادقة لما سيكون من أهوال القيامة وغرائبها.

ويضعف أن يكون من باب التمثيل: ونص الآية الحكيمة أكبر معين على ذلك:

« يوم نقول لجهنم هل امتلأت؟ وتقول هل من مزيد »؟

وكذلك الآيتان الأخريان لا إفراط ولا غلو فيهما: فشهيق النار وزفيرها أمران وجوديان:

فالنار إذا أضرمت وكثر وقودها وتعالت أحدثت أصواتا بتدافع الهواء إليها بعد احتراق ما فيه من غازات قابلة للاشتعال مثل الأكسجين فيحل محل الهواء المحترق هواء آخر وهكذا.

وهو شبيه بصوت الرعد الذى يفسرونه علميا بانجذاب السحب بعضها إلى بعض إذا اختلفت شحناتها فيحل الهواء بشدة محل السحابة المنجذبة فيسمع صوت الرعد.

والعلامة أبو السعرد يذهب فى تفسير الشهيق والزفير مذهبا معتدلا ولا يذكر المبالغة التى حلا لبعض الباحثين تخريج المقام عليها(١):

ولم يقف الحال عندهم عند ذكر هذه الآيات التى ذكرناها، بل قد أكثروا من التمثيل بالآيات الحكيمة التى عدوها غلوا وما هى بغلو قط:

وما إخال هذا الصنع من البلاغيين إلا مجارات لما استقر عندهم من قواعد وأسس اصطلحوا عليها فى شأن المبالغة، وليس من الهين إطلاق الغلو على تركيب فى أسلوب القرآن الحكيم، وكل ما ورد من القرآن مما أطلقوا عليه اسم الغلو أو الافراط فى الوصف يمكن فهمه - بل ذلك واجب - على وجه أو وجوه تنأى به عمالا يليق به من تخريجات حائفة: وإلا فمن من المؤمنين يرضى أو يعتقد أن آية فى القرآن الحكيم تتساوى فى معناها وبيانها مع قول أبى نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى أنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

وهو كذب محض مردود بكل مقياس.

رحم الله أولئك المتعجلين وغفر لنا ولهم زللهم فما كان أحرى بهم وبنا أن نكون أمام كتاب الله أكثر وعيا وأعرف بحقه وأرعى لحرمته.

إن القواعد والأسس التى وضعوها للمبالغة صالحة لقياس أدب البشر ونقده. أما أن نطبقها على البيان القرآنى الحكيم فذلك هو الخطل بعينه.

فكل ما فى القرآن تبليغ وبلاغ وإبلاغ أمين لازيادة فيه ولانقص.

وبان أنه من المحظور تطبيق هذه الأسس على البيان القرآنى لأنها تؤدى إلى الإساءة فى فهم النص الحكيم: وكلام الله فوق كل ريبة وشك.

---

(١) تفسير العلامة أبى السعود جـ ٥ ص ٤٧٥.

السجع

ورود السجع فى القرآن أو إطلاق هذا الوصف على شى من القرآن محل نزاع بين العلماء: فمنهم من أجازه ومنهم من منعه: ولكل من الفريقين أدلته وبراهينه: وهذا الخلاف لايعنينا هنا وإنما الذى يعنينا إنما هو قواعد وضعوها للسجع ثم مثلوا لها من القرآن فكانت الاساءة:

وأكتفى هنا بسوق مأخذ واحد، لأن قصدنا من هذه الدراسة الإشارة والتنبيه لا الحصر والاستقراء وإلا لطال بنا السير.

تفاوت السجع فى الحسن

ليس السجع عندهم مستويا فى الحس، بل منه الحسن والأحسن وضابط هذا كما نصوا عليه:

١ ـ أن أحسن الأسجاع ما تساوت قرائنها(١): ومن أمثلته التى ذكروها قول الإمام على كرم الله وجهه يصف مقام الرسول عليه السلام:

«عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر(٢)»:

٢ ـ ويليه فى الحسن ما طالت قرينته الثانية عن الأولى ومثلوا له من القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ١، ٢]

فالقرينه الأولى هى: والنجم إذا.

أما القرينه الثانية فهى: ما ضل صاحبكم وما.

وهى بلا شك أطول من الأولى.

ومعنى هذا أن السجع فى قول الإمام على السابق أحسن من السجع الذى فى سورة النجم.؟!

لأن قول الإمام استوفى شروط الحسن حسب قواعدهم أما قوله تعالى:

---

(١) القرينة هى الكلام الذى يسبق فاصلة السجع.

(٢) نهج البلاغة جـ١ ص ٨٣ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

obeikandi.com

« والنجم إذا هوى » فلم يستوف كل شروط الحسن لطول القرينة الثانية عن الأولى . والأحسن منه ما تساوت قرائنه . ولهذا فإن قول الإمام ـ حسب منهجهم ـ يفوق قول الله تعالى؟

بل إن بهذا المقياس يصبح قول الحريرى صاحب المقدمات وهو : « يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه » يصبح هذا القول أحسن وأبلغ من قوله تعالى : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى » . ؟

وهذا جهل بقدر كلام الله وسمو بلاغته، وبلوغه حدا لايمكن أن يحاكى فضلا عن أن يعلى عليه .

والسبب فى هذا الخلط تلك القاعدة التى وضعوها ثم طبقوها ظلما على البيان القرآنى فأدى بهم إلى هذا المحظور . ؟

وقد أدت تطبيقات هذه القاعدة إلى محظور آخر وهو القول بتفاوت القرآن بعضه بعضا فى الحسن . وهذا فيه كثير من سوء الفهم والتقدير . فالقرآن كله فى درجة واحدة لايعلو بعضه بعضا، لأن مصدره واحد وهو الله سبحانه وتعالى .

وأفضلية القرآن بعضه على بعض قول شاع عند بعض المتقدمين كالإمام الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » وجلال الدين السيوطى فى كتابه « معترك الأقران فى إعجاز القرآن » وكتابه « الإتقان فى علوم القرآن » .

وحرى بالمسلم المعاصر أن يهجر هذا الفهم، لأنه يؤدى إلى محظور كذلك وهو أن الله ـ سبحانه ـ كان فى بعض المواضع من القرآن أقدر على إجادة القول منه فى مواضع أخرى وهذا محال فى حقه لأنه على حكيم .

وشراح التلخيص، وغيرهم، يفهم من تمثيلهم لتفاوت السجع فى الحسن من القرآن أنهم يذهبون هذا المذهب الذى لايليق بكلام الله البالغ حد الإعجاز فى بيانه ونظمه :

١ ـ فقد قالوا إن من أحسن الاسجاع فى القرآن قوله تعالى : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : ٢٨ ـ ٣٠]

والسبب أن القرائن هنا متساوية وهو شرط الأحسنية عندهم؟

٢ - ويأتى فى الدرجة الثانية من الحسن قوله تعالى:

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ١، ٢]

والسبب إطالة القرينة الثانية عن الأولى؟

٣ - ويأتى فى الدرجة الثالثة من الحسن قوله تعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾.

وقوله تعالى:

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقه: ٣٠ - ٣٢]

والسبب فى هذه الآية إطالة القرينة الثالثة عن الأولى والثانية.

وفى الآية التى تقدمت السبب استواء الثانية مع القرينة الثالثة(١):

إن مثل هذه القواعد تطبيقها على البيان القرآنى محظور، فينبغى أن يعاد النظر فيها وفى مثلها. أو تظل بمنأى عن القرآن وروعته وجلاله.

ولم يوقع العلماء القدماء فى هذا إلا وضع القاعدة أولا مستمدة من أدب البشر: ثم تطبيقها ثانيا على القرآن الحكيم وإلا لما وقعوا فى مثل تلك المحاذير. والله من وراء القصد.

* * *

(١) شروح التلخيص جـ ٤ ص ٤٥٠.

مراجع الدراسة

أعلام الموقعين ـ لابن القيم

أسرار البلاغة ـ للإمام عبد القاهر

إعجاز القرآن ـ للباقلانى

إرشاد العقل ـ لأبى السعود

تاريخ علوم البلاغة ـ للمراغى

تأويل مشكل القرآن ـ لابن قتيبة

ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

جمهرة الأمثال ـ لأبى هلال العسكرى

حاشية السيد على الكشاف ـ للسيد الجرجانى

حاشية الدسوقى

دلائل الإعجاز ـ للإمام عبد القاهر

ديوان أبى الطيب

ديوان البحترى

سر الفصاحة ـ لابن سنان

سنن أبى داود

شروح التلخيص

شرح ابن عقيل

شرح المفصل ـ لابن يعيش

شرح الترمذى

عروس الأفراح

obeikandl.com

قصائص جرير ـ لأحمد الشاربى
مقاييس اللغة ـ لابن فارس
مفتاح العلوم ـ للسكاكى
منهج البلاغة ـ شرح ابن أبى الحديد
مجمع الأمثال ـ للميدانى
معجم الأدباء ـ لياقوت
نقد الشعر ـ لقدامة بن جعفر
يتيمة الدهر ـ للثعالبى
الأمثال ـ لابن سلام
الأغانى ـ لأبى الفرج الأصفهانى
البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ طبعة هارون
البديع ـ لابن المعتز
البلاغة تطور وتاريخ ـ لشوقى ضيف ـ ط المعارف
البحر المحيط ـ لابن حبان
الكتاب ـ لسيبويه ـ ط هارون
التشبيه البليغ ـ للمطعنى ـ دار الأنصار
الصبغ البديعى ـ لأحمد إبراهيم موسى
الصحاح ـ للجوهرى
الصناعتين ـ لأبى هلال
الطراز ـ للعلوى
العمدة ـ لابن رشيق

obeikandi.com

الشيخان : البخارى ومسلم

الترغيب والترهيب ـ للمنذرى

الكشاف ـ للزمخشرى

الوساطة ـ للجرجانى

المغنى فى أبواب التوحيد والعدل القاضى عبد الجبار

الموشح ـ للمرزبانى

المستقصى ـ للزمخشرى

المفردات ـ للراغب

المصباح المنير ـ للفيومى

الموازنة ـ للآمدى

المجازات النبوية للشريف الرضى وتلخيص البيان له

الحيوان ـ للجاحظ

* * *

obeikandl.com